(١)

الحج بين الرحمة والتيسير

وبيان أن قضاء حوائج الناس أولى من تكرار الحج والعمرة

الحَمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القَائِلِ في كِتَابهِ الكريمِ:{وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ}.

وأشهدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدهُ لا شَريكَ لهُ ، شرع الدينَ ويسَّرهُ، فقال سبحانه:{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}. وأشهدُ أنَّ سيِّدَنَا ونّبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسُولُهُ ، القائِلُ في الحديث الشريف : (مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)، فاللهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ وبارِكْ عَلَى سيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ ، ومَنِ اهْتَدَى بِهَدْيِهِ وَسَلَكَ طَرِيقَهُ إلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أما بعد :

فَمِن نعَمِ الله (عز وجل) على عبادِهِ المؤمنينَ أنْ جعَلَ لَهُم مواسِمَ للخيراتِ والرَّحَماتِ ، ومن هذِهِ المواسِمِ العظيمَةِ ما نحن مُقبلونَ عليه من أيام مباركةٍ يستعدُّ فيها الحجيجُ لزيارةِ بيت الله الحرام لأداء فريضَةِ الحجِّ ، حيث تتنزَّلُ الرحماتُ والبركاتُ ، وتتآلفُ القلُوبُ ، وتصفُو النفوسُ ، وتَقْوىَ الصِّلةُ بينَ الإنسانِ وربِّه ، قال

تعالى:{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ}، ويتجلى تكريمُ اللهِ تعالى للحجيجِ بأنْ جعَلهُم ضيفَهُ وزُوارَهُ ، إن دَعَوهُ أجابَهُم ، وإن سألُوهُ أعطَاهُم ، وحقٌّ على المزُورِ أن يُكرِمَ زائرَهُ، يقول النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْحَاجُّ وَالْمُعْتَمِرُ وَفْدُ اللَّهِ ، دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ ، وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ).

والحج بابٌ واسعٌ من أبوابِ الرَّحْمةِ والمغفِرةِ ، وفيهِ من التَّيسِيرِ والسّعَةِ ما لا يوجَدُ في غيرِهِ من العباداتِ ، وإذا كان الإسلامُ كلُّه قائمًا على التَّيسِيرِ ورَفعِ الحَرجِ ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}، ويقول:{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}، فإنَّ هذا التيْسِيرَ في الحجِّ أولى وألزَمُ ، فمَا يَسَّرَ نَبيُّنَا (صلى الله عليه وسلم) في شيء أكْثرَ من تيْسِيرِهِ على حُجَّاجِ بيتِ اللهِ (عزَّ وجلَّ) في قَولتِهِ المشْهُورَةِ : (افْعَلْ ولا حَرَج).

وتتَمَثَّلُ مظاهِرُ رحمَةِ اللهِ ـ تعالى ـ وتَيْسِيرِهِ في الحجِّ في أمورٍ كثيرَةٍ، منها: **أنَّ اللّه تعالى فرضَهُ في العُمر مرَّةً واحِدَةً** ، حيث قَالَ نبيُّنا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ

فَحُجُّوا)، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ) ، وفي رواية : (الْحَجُّ مَرَّة ، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ).

ومنها: أن الحجَّ لم يُفرَض إلا على المستَطِيعِ ، والاستطاعَةُ هنا تعْني القُدْرةُ الماليَّةُ والبدنِيَّةُ معًا ، لأنَّ دواعِيَ المَشَقَّةِ في مناسِكِ الحجِّ مُتَيَقَّنَةٌ ، فوَجَبَ التأكِيدُ على شَرْطِ الاستِطاعَةِ ، فهو فرضٌ على المستطيعِ فَقَط ، حيثُ يقولُ الحقُّ سبحانَهُ وتعالى :{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً}.

ومنها: أن الحجَّ يغفرُ ما قبلَهُ منَ الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ ، ويَفتَحُ صفْحةً جَدِيدَةً بَيضاءَ نقِيَّةً لِصَاحِبِهِ ليبْدَأ عَهدًا جَدِيدًا مع خالِقِهِ ، فعَنْ عمرِو بنِ العاصِ (رضي الله عنهما) قال: قَالَ لي رسولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم):(أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟)، والحجُّ المبرُورُ ثوابُهُ الجنَّةُ، يقُولُ نبيُّنا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ).

كذلك من مظاهِرِ الرَّحمَةِ والتَّيسِيرِ في الحَجِّ : أنْ أذِنَ للضُّعَفَاءِ بالنزولِ من مزدلِفَةِ إلى مِنَى قَبلَ الناسِ حتى لا يُزاحِمَهُمُ الأقْوِياءُ

أثناءَ دفعِهم إلى مِنًى ، فالضعيفُ أميرُ الرَّكْبِ ، وكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) يُقَدِّمُ ضَعَفَةَ أَهْلِهِ فَيَقِفُونَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ بِالْمُزْدَلِفَةِ بِلَيْلٍ فَيَذْكُرُونَ اللهَ مَا بَدَا لَهُمْ ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ قَبْلَ أَنْ يَقِفَ الْإِمَامُ وَقَبْلَ أَنْ يَدْفَعَ ...).

ومنها: جوازُ النِّيـابَةِ في الحجِّ عن الغَـيرِ بشرْطِ أن يكونَ قد حجَّ عن نفسِهِ، **وكذلك النِّيابَةِ في رمْيِ الجَمَراتِ** تَيْسِيرًا على ذَوِي الأعذارِ من المرضَى وكِبارِ السنِّ والنِّساءِ ، وتخفيفًا للزِّحامِ عن الجميعِ، فالمَشَقَّةُ قائمةٌ للضَّعيفِ والقـوِيِّ ، واقعةٌ عليهِـمَا معًا ، غير أن القَـويَّ يحتمِلُ منهَا ما لا يحتَمِلُه الضَّعِيفُ .

ومن مظاهِرِ التَّيْسِيرِ في الحجِّ : رَفْعُ الحَرَجِ في ترتيبِ أعمَالِ يَومِ النَّحْرِ، فالهَدْيُ النَّبَوِيُّ العَمَلِيُّ أن يأتِيَ الحاجُّ بأعمالِ الحجِّ في يومِ النَّحْرِ على الترتيبِ : فيرْمِي الجمَرَاتِ ، ثم ينْحَرُ الهَدْيَ ، ثم يحْلِقُ أو يُقَصِّرُ ، ثم يطوفُ بالبيتِ ، ويَسْعَى بين الصَّفَا والمَرْوَةِ .

غَيرَ أنَّ اجتِمَاعَ الحَجِيجِ على عمَلٍ واحِدٍ في يَومٍ واحِدٍ وسَاعَةٍ واحِدَةٍ فيهِ منَ المَشَقَّةِ والعنَتِ ما فيهِ ، فَرفَعَ اللهُ عنهُمُ الحرَجَ والضِّيقَ، وبيَّنَ على لسانِ رسُولِهِ (صلى الله عليه وسلم) أنّ مَن قَدَّمَ بعضَ هذهِ الأعْمَالِ على بَعْضٍ فلا حَرجَ عليه ولاَ إثْمَ ، فَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ

(صلى الله عليه وسلم) عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ ، وَلاَ أُخِّرَ إِلاَّ قَالَ : (افْعَلْ ، وَلاَ حَرَجَ). وهذا ما أكَّد عليه نبيُّنا (صلى الله عليه وسلم) من ضرورَةِ التَّيْسِيرِ ، واستنكَارِ كُلِّ أشْكالِ التَّشدُّدِ في الحجِّ ، فعنْ أنسٍ (رَضِي الله عَنهُ) أنَّ النبيَّ (صلى الله عَلَيْهِ وَسلم) رأى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ ـ يعتمد عليهما ـ قَالَ: (مَا بالُ هَذا؟) قالُوا: نَذَر أنْ يَمْشِي ، قَالَ: (إنَّ الله عَنْ تَعْذِيبِ هَذا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ ، وأمَرَهُ أنْ يَرْكَبَ)، فحَريٌّ بكلِّ من قَصَدَ البيْتَ الحَرامَ أن يأخُذَ بالأيْسَرِ لنَفْسِهِ ولحَالِه في الحجِّ ، وليجعَلَ منَ اليُسْرِ منهَجَ حياةٍ لهُ في الحجِّ وغيرِهِ ، فاليُسْرُ دائمًا وأبَدًا لا يأتِي لصَاحِبِهِ إلا بكلِّ خَيْرٍ .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والعاقبةُ للمتقينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وليُّ الصَّالحينَ ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنَا مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسُولُه ، الصَّادِقُ الوعْدُ الأمينُ ، اللَّهُمَّ صلِّ وسَلِّمْ وباركْ عليهِ وعلَى آلِه وصحْبِهِ ومنْ تبعَهُم بإحسَانٍ إلى يومِ الدِّينِ ، أما بَعْدُ ،،،

فَمَعَ ما لِلْحَجِّ منْ فَضْلٍ وخَيْرٍ وَبَرَكَةٍ إلاَّ أنَّ الأمُورَ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا ، فَفِي أحْوالِ الرَّغَدِ المَعِيشِيِّ لا بأسَ بِتِكْرَارِ الحجِّ والعُمْرَةِ ، بَلْ هُو خَيرٌ وأمْرٌ مسْتَحَبٌّ ، غيْرَ أنَّه لا يعْدُو كَوْنُهُ نافِلَةً وتَطَوُّعًا لا يتَقَدَّمُ علَى

فروضِ الكِفاياتِ ، فإنَّ قضاءَ حوائِجِ النَّاسِ والقيامَ بفُروضِ الكفاياتِ أوْلَى من حَجِّ النَّافِلَةِ والتطَوُّعِ ، فمَنْ رزقَهُ اللهُ (عزَّ وجَلَّ) حجَّ بيْتِهِ الحَرامِ ، وتَيَسَّرَ لَهُ الحجُّ مرةً أُخْرَى ، فالأوْلَى أن يُوَجِّهَ نفقَاتِ الحجِّ لمساعَدَةِ الفقَرَاءِ والمَسَاكينِ ، وتَوْفِير ما يُحَقِّقُ للنَّاسِ حَياةً آدَميَّةً كريمَةً منَ المطْعمِ والملْبَسِ والمَسْكَنِ والدَّواءِ والتعْليمِ ، وغيرِ ذَلكَ ممَّا يحفظُ لهُم كرامَتَهُم ويوَفِّرُ لهُم سُبُلَ الرُّقِيِّ والتَّقَدُّمِ ، فذلك أولى من تكرارِ الحجِّ والعُمرةِ ومُقَدَّمٌ عليهِمَا ، فقَد قَدَّمَ النبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) قضاءَ حوائجِ الناسِ على الاعتكافِ في مسجدِهِ ، حيثُ قالَ : (أَحَبُّ النَّاسِ إلى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ـ يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِـ شَهْرًا).

وأخيرًا نؤكدُ أنَّ قضاءَ حوائجِ الناسِ والقِيامَ بِمُتَطَلَّبَاتِ حياتِهِم لَيْسَ مُجَرَّدَ نافِلَةٍ ، إنَّمَا هُو واجِبٌ شَرْعِيٌّ ووَطَنِيٌّ.

نَسْألُ اللهَ تَعَالَى أنْ يُحَقِّقَ أمْنِيةَ كُلِّ مُتطَلِّعٍ لأداءِ فريضَةِ الحجِّ ، وأن يرزُقَنَا وإياهُم القَبُولَ، وأن يجْعلَنَا منْ أهْلِ قضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ ، وأنْ يرزُقَنَا حُسْنَ الفَهْمِ لدِينِنَا الحَنِيفِ ، وأن يَجْعَلَ لنَا منْ أمْرِنَا يُسْرًا.